تَجَليَّات الخُلُقِ الإِسلامِيِّ الرَّفيعِ بيْنَ الإِمامِ الشَّافِعِيِّ والآخرينَ في دِيوانِه الشِّعرِيِّ

إعداد

د.عمر حسن محمد خمايسة

أستاذ الأدب والنقد المساعد - جامعة الجوف

كلية العلوم الإدارية والإنسانية - قسم اللغة العربية

الملخص العربي:

هذه دراسة تدور حول تجليات الأخلاق *الإسلامية* الرفيعة بين الإمام الشافعى والآخرين فى ديوانه الشعري، وذلك من خلال الحديث عن البخل والكرم، والجهل والعلم والأدب، والسفه والحلم والحكمة.

وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي من خلال ثلاثة مباحث، وكان من نتائج البحث أن شعر الشافعي يعد تعبيرًا صادقًا عن حزنه العميق حين رأى الناس في عصره يتكالبون على نعيم الدنيا الزائل.

Abstract;

The current research aims to show the Islamic ethics and morals between El Shafey and the people who live in that time.

Methodology; Descriptive Approach through thee aspects;

- Parsimony and generosity
- Darkness and knowledge
- Contumelious and wisdom.

The results of the research showed that El Shafey's poetry expressed clearly about his sadness beacouse what he sow the behavior of the people im his time.

الكلمات المفتاحية:		**Keywords**
الخلق الإسلامي الرفيع		Islamic ethics and morals
الشعر العربي		Arabic Poetry
البخل والكرم		Parsimony and generosity
الجهل والعلم والأدب		Darkness and knowledge
السفه والحلم والحكمة		Contumelious and wisdom

المقدمة:

إن المطَّلع على ديوان الشافعي لا يمَلُّ قراءته بين الحين والحين، فإذا كان هذا القارئ الشغوف باحثًا، شَعَر مع كل قراءة بأن هذا الديوان يحتاج إلى دراسات متخصصة، حتى إذا هَمَّ وأخذ يراجع ما قام به الدارسون والباحثون السابقون من دراسات حول هذا الديوان أصابه قدرٌ كبير من الهَمِّ واللوم، ولم يملك إلا أن يشمِّر عن ساعِد الجِدِّ ليبدأ في الإحسان إلى هذا الديوان بعمل دراسة متخصصة تعالج ذلك النقصَ البحثي حوله، وتسهم في إبراز صورة المجتمع الذي كان يعيش الشافعي بين ظهرانيه، وتُبيِّن مدى ابتعاد الآخر غير الملتزم عن مبادئ الدين، وتعرض صورةً واضحةً للقيم النبيلة والأخلاق الفاضلة المستمدة من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف عند هذا العالم الجليل (الإمام الشافعي).

لقد عاش الإمام الشافعي في بيئة متلاطمة الأعراف والعادات والتقاليد والمذاهب والأحزاب، تلك هي البيئة العباسية التي انصهرت في بوتقتها عناصر أجنبية من الفرس، والروم، والأتراك، ودخلت تلك العناصر الإسلام وبعضها حسن إسلامها، والآخر ظل يدين بمعتقدة في الباطن والخفاء ويظهر إسلامه، فنبغ منها الشعراء والكتَّاب الذين ترجموا الكثير من آثارهم الأدبية إلى اللغة العربية، مما أضاف أثرًا طيبًا من تلك المعارف والعلوم إلى التراث العربي، وحدثت عملية التأثير والتفاعل الحضاري بين هذه الأمم، وفي الوقت الذي نعترف فيه بأثر تلك الحضارات في الأدب العربي، وما أضافوه من منطق وفلسفة تعود بالخير والفائدة على الأدب العربي،

نشير أيضًا إلى أنَّ هناك موجة من الآثار السلبية وجدت طريقها إلى المجتمع العباسي – وعلى وجه الخصوص تلك التي جاءت من بلاد فارس –فتغلغلت في هذه البيئة وتعمقت جذورها، وتفشت بين الأوساط الاجتماعية وراحت – مع مرور الأيام – تتكشَّف، وتنتشر لتشكل ظاهرة خطيرة من شأنها زعزعة كثير من القيم والسلوكيات، ومن أبرزها المجون والزندقة واللهو والغزل بالغلمان وشرب الخمر الذي شكَّل خطرًا كبيرًا على المجتمع؛ فبنيت الأماكن المخصَّصة لشرب الخمر (الديارات) في أرجاء مختلفة من المدن العباسية، مثل: بغداد، والبصرة، والكوفة، كما ظهرت على الصعيد السياسي حركات معارضة وبعض الفتن والثورات هنا وهناك.

وفي ظل هذه المتناقضات في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية، عاش الإمام الشافعي وكان يكتوي بنار تلك الاتجاهات، ويتألم لما يراه من فساد يستشري في جسم الدولة العباسية، وكان يعاني أزمة حقيقية لاستفحال الأمراض الاجتماعية، مثل: النفاق، والكذب، والبخل، والتشبث بحُطام الدنيا، وعدم تقدير العلم والعلماء، والقبول بالذل والمهانة، والجهل، والسفه والطيش، وسوء الظن، والخُبْث، واللُّؤْم، والحسَد، والنميمة، وغير ذلك من الصفات، وفي المقابل كان الشافعي مَضرِبَ مثلٍ في التحلِّي بالمثل والقيم الإسلامية، والأخلاق الفاضلة، مثل: الوفاء، والأمانة، والصدق، والصبر، وتقوى الله، وتعظيم منزلة العلم والعلماء، والسكوت عن الجاهل والسفيه، وكان كريمًا سخيًّا، عالمًا فقيهًا.

لعل هذه الثنائية الضدية المتماثلة بين صورتين متناقضتين: صورة الأنا (الإمام الشافعي الممثل للقيم والأخلاق والأدب)، وصورة الآخر (ممن خرج عن النظام والقيم والأخلاق) هي التي دفعت بنا إلى محاولة الكشف عن هذه الثنائية ورسْم تجلياتها من خلال قراءات متأنية لديوان الشافعي واستنطاق نصوصه المعبرة عن هاتين الصورتين.

ولعل المعاناة التي نلمسها في شعر الشافعي وما استشعره عن عمق المأساة التي نخرت في قيم العدالة والأخلاق الإسلامية، هي التي دفعت الشافعي إلى تخصيص ديوانه الشعري للحديث عن هذه الكارثة الحقيقية التي أصابت بالسوء كثيرًا من عباد الله والشريحة النخبوية التي تمسكت بأهداب الفضيلة وفي مقدمتها الإمام الشافعي الذي جعل ديوانه الشعري منارات عالية يهتدي بها التوَّاقون إلى التمسك بالأخلاق الفاضلة، وذلك لما يزخر به هذا الديوان من الحِكَم من جواهر الأدب والأخلاق.

موضوع الدراسة:

تدور هذه الدراسة حول (تجليات الخلق الإسلامي الرفيع بين الإمام الشافعي والآخرين في ديوانه الشعري) تتناول المحاور التالية:

١- الناس البخلاء والشافعي الكريم.

٢- الناس الجهلاء والشافعي العالم الأديب.

٣- الناس السفهاء والشافعي الحليم الحكيم.

منهجية البحث:

اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي في إبراز هذه المعطيات من خلال التحليل المعمَّق لشعر الإمام الشافعي واستنطاق نصوصه التي كشفت عن هذه الثنائية وهذا التضاد بين صورتين: طرفها الأول المجتمع وأخلاقياته، والطرف الآخر هو الشافعي الكريم والعالم الزاهد والحليم والوفي، وقد استعنَّا بمجموعة من المصادر والمراجع التي مهَّدت لنا هذا سبيل هذه الدراسة.

وفيما يلي دراسة مفصَّلة من خلال الشعر للصورتين المتنافرتين السابقتين:

((المحور الأول))

الناس البخلاء والشافعي الكريم

لقد نهى الإسلام عن الشح والبخل كما نهى عن الظلم؛ فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: ((اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم))[1].

يرى الشافعي أنه على الإنسان الذي تزداد أفعاله الذميمة بين خلق الله فيظلم هذا وينتقص حقَّ هذا ويمشي بالنميمة بين الناس وما إلى ذلك من عيوب خُلقية واجتماعية – أن يلجأ إلى وسيلة لا تكشف تلك العيوب فتخفف الآثار السلبية المترتِّبة عليها، ويرشده الشافعي إلى خير طريقة تغطي تلك العيوب، وليست من صنوف الحياة المادية كالقماش[2]:

وَإنّ كَثُـرَتْ عُيُوبُـكَ فِـي البَرَايَـا ★★ وَسَـرَّكَ أنّ يَكُـونَ لَهَـا غِطَـاءُ
تَـسَتَّرْ بِالـسَّخَاءِ؛ فَكُـلُّ عَيْـبٍ ★★ يُغَطِّيـه – كَمَـا قِيـلَ – الـسَّخَاءُ

بل هي فعلٌ مضاد ومعاكس لتلك النقيصة، إنها السخاء والكرم والبذل والمعطاء من مال الله، صورة مستمدة من البيئة التي يعيشها الناس، ولعل هذا التوجيه من الشافعي والدعوة إلى البذل والسخاء دليل على أنه كان كريمًا، وأن العيوب كثيرة ولا يسترها أو يخفيها إلا الكرم، الذي يراه الشاعر

---

١) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، منشورات محمد علي بيضون، لبنان، ط٢، سنة ٢٠٠٣م، (١٩٩٦/٤) رقم ٢٥٧٨ من حديث جابر رضي الله عنه.

٢) ديوان الإمام الشافعي (الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس)، تعليق وتقديم: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٨٨م، ص١٠.

غطاءً يخفي تلك العيوب، ولعلها دعوة صريحة من الإمام الشافعي إلى السماحة والكرم، وتزداد قيمة هذه السماحة وهذا الكرم حينما يكون في الضد للبخل تحقيقًا للمبدأ النفسي العام، وهو أن اجتماع الجميل إلى القبيح يدفع الإحساس بجمال الجميل لأن جماله في هذه الحالة يبرز بشكل أوفى.

ولعل الكرم خلق إسلامي رفيع يتحلَّى به المؤمن الكريم، يقول ﷺ: ((لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله مالاً، فسلَّطَه على هلكته في الحق، ورجل أتاه الله حِكْمة فهو يقضي بها ويعلمها))[١].

ويقدِّم الشافعي صورةً منفِّرةً للبخيل الذي لن ينال سماحته أحد أو يحقق من الناس من يديه رجاءه، فصورة من يرتجي نوال البخيل كمن اشتد به العطش ويبتغي من النار ماءً يسد به الظمًا، يقول الشاعر[٢]:

ولا تــرج الــسماحة مــن بخيــل ★★ فمــا في النــار للظمــآن مــاءُ

ويتلهف الشافعي على المال الذي يود أن ينفقه على الفقراء والمحتاجين من أهل المروءة، ويندب حظه لعدم توافر المال بين يديه، ويعد ذلك مصيبة من المصائب، يقول مصورًا ذلك[٣]:

يـا لهـف نفـسي علـى مـال أفرِّقـه ★★ علـى المقلـين مـن أهـل المـروءات
إن اعتـذاري إلى مـن جـاء يـسألني ★★ ما ليس عندي لَمِنْ إحدى المصيباتِ

---

١) صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، ، محمد بن إسماعيل، دار الحديث، القاهرة، د.ط. كتاب: العلم، باب: الاغتباط في العلم والحكمة، ١٩٩/١، رقم ٧٣.

٢) ديوان الإمام الشافعي: ١٠.

٣) ديوان الإمام الشافعي: ٣٣.

ويؤثر الشافعي الآخرين على نفسه، فإذا به يجود بما يملك ولو بات جائعًا، ويظهر بين رفاقه أنه بلغ أسباب الغنى، ولكنه معدم فقير يشكو إلى الله فقره يقول(١):

أجـود بموجـود ولـو بـت طاويًـا ★★ على الجوع كَشْحًا، والحشا يتألم
وأظهـر أسباب الغـنى بـين رفقـتي ★★ ليخـافهم حـالي، وإني لَمُعـدِم
وبـيني وبـين الله أشـكو فـاقتي ★★ حقيقًـا فـإن الله بالحـال أعلـم

يستعرض الشاعر صورة الدنيا فيرى أن ما تحتويه من إيجابيات وسلبيات، وما يدور في فلكها من أحداث يتفاعل معها وينسجم، وما يصنعه الإنسان من أفعال جميلة وقبيحة كل ذلك قد استثغاه الشافعي وتذوق طعمه، وما هي إلا نعي وشقاء، وفرح وترح، ولعل هذه الثنائيات في الحياة قد رمز لها الشاعر بالعذب والعذاب، وفي نظرة فإن النتيجة واحدة وهي الزوال والفناء، ولربما قصد الشاعر إلى هذا التجانس في النهاية من خلال التجانس الإيقاعي والصوتي بين الكلمتين عذب وعذاب، ويبرز الشاعر صورة الدنيا بحلوها ومرها من خلال رسم صورة مثيلة لها وهي السراب الذي يراه الإنسان ماءً، وهو بهذا خداع وباطل، فإذا جاءه المرء ليشرب كشف حقيقته وجوهره، يقول(٢):

ومـن يـذق الـدنيا فـإنى طعمتـها ★★ وسِـيقَ إلينـا عَـذْبُها وعَـذابها
فلـم أرهـا إلا غُـرورًا وبـاطلا ★★ كمـا لاح في ظهـر الفـلاة سـرابها

---

١) ديوان الإمام الشافعي: ١٣١.
٢) ديوان الإمام الشافعي: ١٦.

ويسوق الشافعي صورة منفرة للدنيا، قائلاً[١]:

ومـــا هـــي إلا جيفـــة مـــستحيلة ★★ عليهـــا كـــلاب همُّهُـــنَّ اجتـــذابها
فـــإن تجتَنِبْهـــا كنـــتَ سِـــلْمًا لأهلـــها ★★ وان تجتـــذبها نازعتـــك كلابهـــا

ينظر الشافعي على الدنيا بمنظار الزهد من نعيمها وأهوائها، ويقدم صورة تتقزز منها النفس، فهي جفية وطلابها من الناس كلاب، لأنهم يتنافسون على الاقتراب منها والانتفاع بها، فمن يجتنبها ويبتعد عنها كان سالمًا من نتائجها، ومن تسول له نفسه بالإقبال عنها فإنه يرتمي في معترك الكلاب التي تتنافس على هذه الجيفة، ولعل هذه الرؤية تشير إلى تأثر الشافعي بالقرآن الكريم لقوله ﷻ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٢]، ويلعب الإيقاع الصوتي دوره الفعال في تقبيح الصورة من خلال التكرار لتأكيد اجتناب هذه الجيفة، ومن خلال الإلحاح على فعل النهي وعدم الاقتراب منها، ويظهر ذلك في تكرار حرف الهاء في الكلمات: جيفه ومستحيلة، ومعهن، واجتذابها، وتجنبها، ولأهلها، وتجتذبها، وكلابها وكذلك يلعب الطباق دوره في عملية التأكيد هذه ويظهر ذلك في الكلمتين تجتذبها، وتتجنبها.

ويؤكد الشافعي قناعته بالقول[٣]:

قنِعـــت بـــالقوت مـــن زمـــاني ★★ وصـــنت نفـــسي عـــن الهـــوان

---

١) ديوان الإمام الشافعي: ١٦.
٢) سورة آل عمران: ١٨٥.
٣) ديوان الإمام الشافعي: ١٣٩-١٤٠.

خوفًا من الناس أن يقولوا ★★ فضل فلان على فلان!!
من كنت عن ماله غنيًّا ★★ فلا أبالي إذا جفاني
ومن رآني بعين نقص ★★ رأيته بالتي رآني
ومن رآني بعين تِمٍّ ★★ رأيته كامل المعاني!!

لقد قنع الشافعي من يومه بالطعام القليل، ولم يطمح إلى أكثر من ذلك فكان يكتفي بالقليل ويصون نفسه عن المطالبة بالكثير، لئلا تقع نفسه في الذل والهوان، فيغدو عنها هدفًا للحاقدين من الناس الذين يطلقون للسانهم العنان بالحديث عن ارتفاع منزلة فلان الذي أغدق المال على الشافعي، ويخفضون من شأنه، من أجل صون نفسه عن هذه الأقوال وقدح الناس له ووصفه بالذليل الذي يستعطف الآخرين، كان في غى عن مال الآخرين، ومن هنا وجد الشافعي في هذا النهج طريقًا لعدم مبالاته بالآخرين أو من له عليه يد، ولم يكن الشافعي ليترفع عن الجشع المادي فحسب، إنما كان يرى المال وسيلة تدفع الإنسان إلى التشبث الممقوت بأهداب الملذات الزائفة، فكان أن فاض لديه بقية رزق وزَّعه على المُعوزِين من الناس ذوي الفاقة والمقلِّين.

والشافعي بهذه النظرة الواقعية يؤكد علوّ همته وترفُّعه عن صغائر الأمور لاسيما سموه عن حب المال بأي طريقة غير شرعية وصحيحه مرفوضه عنده، لانه يدرك ببصيرته أن هذا الطريق له ضريبه باهظة هي الحط من كرامة الإنسان، ولهذا تبقى نفسه كريمة عزيزة، ينظر إلى الآخر نظرة علو وهمة فلا يبالي بجفوة الآخرين أو من ينظر إليه نظرة دنيوية فلا

يضره ذلك كله لأنه حفظ نفسه وصانها من الوقوع في حبائل الماكرين من الناس، لأن الإمام الشافعي يدرك أن الدنيا صغيرة لا وزن لها، فقد ورد عنه عليه السلام قوله: ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم ثم لينظر بما يرجع[١].

والقناعة كما يراها الشافعي هي رأس الغنى، يقول[٢]:

رأيت القناعة رأس الغنى ★★ فصرت بأذيالها متسمك
فلا ذا يراني على بابه ★★ ولا ذا يراني به منهمك
فصرت غنيًّا بلا درهم ★★ أمر على الناس شبه الملك

لقد أدرك الشافعي أن القناعة كنز كبير، يستغنى فيه المرء عن سوء الناس وأحاديثهم السفيهة، فيسلم نفسه من أذاهم ويحفظها من مكائدهم وخداعهم، ويجسد الشافعي القناعة بشيء مادي من خلال تمسكه بذيل ذلك المجسد نظرًا لأهميته وعلو شأنه، وهذه الكناية . التمسك بأذيال القناعة . التفاتة فنية طريفة، فبأسلوبها المجازي تشخص القناعة وكأنها إنسان يرتدي ثوبًا فضفاضًا يتيح للشاعر التمسك بأذياله، حريصًاعلى ملازمته وعدم الإفلات من قبضته.

وبالقناعة يغدو الإنسان غنيًا، لأن الغنى هو غني النفس لا غنى المال، إنها المروءة التي كانت عنوان الشافعي في سره وجهره، ومن كمال المروءة

---

١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، (٤/٢١٩٣)، برقم:(٢٨٥٨)

٢) ديوان الإمام الشافعي: ١١٣.

عند الإنسان ألا يفعل في السر أمرًا وهو يستحيي أن يفعله جهرًا[١]، ولعل الشطر الثاني من البيت الأخير يشير بوضوح إلى الآثار العظيمة والنتائج الكبيرة التي تعود بالخير والفائدة على من يقتنع بما حوته يداه، ويستغني بهذا عما هو عند الناس، فمن يفعل ذلك لا يطأطئ رأسه، بل يبقى عالي الهمة بين الناس، وها هو الشافعي يترفع عما يملكه الآخرون، ويكتفي بما عنده، فيغدو شبيه الملك عزةً وكرامة، أنفة وقوة وكبرياء، ولا يبالي بما يتقوَّله الناس.

ويقدم الشافي رؤية واقعية للقناعة ما يترتب عليها، وللطمع وما ينجم عنه، يقول[٢]:

أمت مطامعي فأرحت نفسي ★★ فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكنت ميتًا ★★ ففي إحيائه عرض مصون
إذا طمع يحِلُّ بقلب عبدٍ ★★ علته مهانة، وعلاه هون

يرسم الشافعي لوحتين متنافرتين للقناعة والطمع، فقد أحيا القناعة في نفسه وأمات الطمع، وكأن هاتين الصفتين المتضادتين مادة نلمسها بأيدينا، ففي انبعاث القناعة وإحيائها في النفس صونٌ للأعراض وحفظٌ لها من التدنيس والأذى، وراحة وطمأنينة لنفس صاحبها وكرامة وعلو همة، أما الطمع إذا ما حل بالنفس فإنه يهينها ويزلها، ويغدو صاحبها عبدًا لها، ومن

---

١) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، ومحمد الشاذلي، دار المعارف، ط٣،سنة ١٩٨١م،ج١، ص١٥٤، ١٥٥، مادة «مرأ». وينظر: الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القاهر، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، ص٦٢٠.

٢) ديوان الإمام الشافعي: ١٤٨.

هنا نستشعر في هذه الأبيات أن هذه المفارقة تتجسد في طرفين هما: الشافعي الذي أحيا القناعة في نفسه وأمات الطمع، وأما الآخر فهم الناس الذين أماتوا القناعة وأحيَوا الطمع في نفوسهم، ولعل الكلمات المتضادة هنا هي التي أضفت الجمال الفني والإيقاعي على المقطوعة الشعرية، فهناك أحيا وأمات، والقناعة والطمع، والآخر والشافعي، والراحة والمهانة، بالإضافة إلى التكرارات في الكلمات والحروف، وكذلك ورود بعض المحسنات البديعية.

وبمنطق الشافعي وتجربته في الحياة وخبرته، يدلل على صحة ذلك من خلال المفارقة الكبيرة بين الغني وصاحب العقل الراجح، فهذان ضدان لا يلتقيان، وصاحب العقل يظل مبتلى في الحياة فتكثر همومه، ولكن تبقى همته عالية، ولا يسأل الناس، يقول الشافعي[1]:

بلـوت بـني الـدنيا فلـم أر فـيهم ★★ سوى من غدا والبخل ملء إهابه
فجردت من غمد القناعة صارمًا ★★ قطعـت رجـائي منـهم بذبابـه

ولعل ما يميز الشافعي هنا هذه الصورة المعبِّرة التي ساقها للقناعة، فجعلها جماع القوة والنصر على الذل والهوان والاستكانة واستجداء الناس، فهي السلاح والسيف الصارم الذي يستل من غمده، لمواجهة الطمع والشح والبخل والغنى.

---

١) المصدر السابق: ٢١.

ويعني الشافعي أولئك الذين يتبعون ما ينفقون منًّا وأذى، فيقول[1]:

رأيتــك تكــويني بميــسمِ مِنَّــةٍ ** كأنك كنت الأصل في يوم تكويني

فـدعني مـن المـن الـوخيم فلُقّمَـةٌ ** من العيش تكفيني إلى يوم تكفيني

يرى الشافعي في هذين البيتين أن من الأسباب التي تدفعه إلى الرضا بالقليل والقناعة الصورة القبيحة للآخرين، الذين يؤذون غيرهم بما يمكن أن ينفقوا عليهم، ويرسم الشاعر هذا المشهد من خلال المفارقة بين كلمتي (تكويني – وتكويني)؛ فالأولى تعني الإيذاء بالمن الذي جسده الشاعر بالكيِّ الذي يحرق الجسد، وتكويني الثانية تعني يوم خلق، وكأن هذا الإنسان المؤذي سبب في تكون وخلق المؤذَى، كما يرسم الشاعر مشهدًا آخر للقناعة التي يتحلى بها وهي الرضا بلقمة العيش والكفاف، ويسد بها الرمق تكفيه إلى اليوم الذي يسلب فيه روحه، وقد عبر الشاعر عن ذلك من خلال الكلمتين المتضادتين (تكفيني) الأولى، وتعني سد حاجته، و(تكفيني) الثانية، وتعني الموت من خلال لباسه الكفن.

ويدعو الشافعي الناس إلى محاربة البخل والشح، يقول[2]:

إذا لم تجودوا والأمور بكم تمضي ** وقد ملكت ايديكم البَسْطَ والقبضا

فمــاذا يرجــى مــنكم إن عُــزِلْتُمُ ** وعـضتكم الـدنيا بأنيابهـا عـضا؟!

وتـــسترجع الأيـــام مـــا وهبـــتكم ** ومن عادة الأيام تـسترجع القرضا

---

١) ديوان الإمام الشافعي: ١٥١.

٢) المصدر السابق: ٨٨.

ينعي الشافعي على الناس تمسكهم وبخلهم بما أنعم الله عليهم، ويكشف لهم أن ما حازوه من نعيم، إذا لم يجودوا به على مستحقيه سيؤول إلى النفاذ، وقد عبر الشافعي عن هذه العملية بصور الدنيا التي استعار لها أنيابًا كأنياب الحيوانات، فإذا ما رأت الإنسان يتمرد، نشبت أنيابها به كما تنشب الحيوانات أنيابها بفريستها، وحينما يقع الإنسان في قبضة الأيام فإنها لا ترحمه، فالغني يغدوا فقيرًا، وقد عبر الشافعي عن ذلك بتصوير الأيام كأنها إنسان يقرض الناس، ولا بد من أن تعيد ما اقترضته على الرغم من أنفك، ويحذر الشافعي الناس من التمادي في البخل والشح.

((المحور الثاني))
الناس الجهلاء والشافعي العالم الأديب

يقدم الشافعي صورة منفرة للناس في عهده، فيقول[١]:

تحكموا فاستطالوا في تحكُّمهم ** وعمَّا قليلٍ كأنَّ الأمرَ لم يكن
لو أنصَفوا أنصِفُوا، ولكنْ بغوا، فبغى ** عليهمُ الدهرُ بالأحزان والمحن
فأصبحوا ولسان الحال يُنشِدُهُم: ** هذا بذاك، ولا عَتْبٌ على الزمن

إن الشافعي ينعى الآخر من الناس خلال فقدانهم لكثير من القيم الإنسانية، ومنها العدالة التي بها يستتب الأمن والطمأنينة، لكنهم تسلطوا على بعضهم وتفنَّنُوا في تحكمهم، ومارسوا على بعضهم أشد صنوف الظلم والفجور والغيِّ والعدوان، وكانت عاقبتهم وخيمة فكما، ظلموا بعضهم، سلط الدهر عليهم نتائج بغيهم، فاشتدت بهم المحن وكثرت أحزانهم ومصائبهم، ويصور الرسول هذا الخصام والفجور والتنافس واقتتال الناس وتحكمهم وجبروتهم فيقول ﷺ: ((إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخشى عليكم أن تنافسوا وتقتتلوا فتهلكوا))[٢]، ويرسم الإمام الشافعي للأديب – شاعرًا كان أم كاتبًا – صورة فنية جميلة تميزه عمن سواه من الناس، يقول الشافعي[٣]:

---

١) ديوان الإمام الشافعي: ١٤٢.
٢) صحيح مسلم: ١٧٩٦/٤، الحديث رقم ٢٢٩٦.
٣) ديوان الإمام الشافعي: ١٤.

أصبحت مطرحًا في معشرٍ جهلوا ★★ حق الأديب فباعوا الرأس بالذنب
والناس يجمعهم شمل، وبينهم ★★ في العقل فرق وفي الآداب والحسب
كمثل مالذهب الإبريز يشركه ★★ في لونه الصفر، والتفضيل للذهب
والعود لو لم تطب منه روائحه ★★ لم يفرق الناس بين العود والحطب!!

لا شك أن الشافعي يرفع قيمة الأديب بما يمتلك من مقومات علمية وفكرية وسعة في الخيال ورؤية استشراقية للكون والحياة أكثر من غيره، فهو متميز ومتفرد بين أقرانه، فالعلم الذي يقصده الشافعي إذن يجسد موقفًا عقائديًّا وأخلاقيًّا، فهو ميزان المؤمن الذي يعرف الحلال والحرام، ليفوز بالسعادة التامة.

ولعل هذه الخصوصية تجعله محط اللامبالاة به وعدم الاهتمام من قبل الجاهلين الذين لا يميزون بين المكانة العليا والحضيض أو بين الرفعة والسمو من جهة والذلة والاستكانة من جهة أخرى، فقد استوى الأمر عندهم، فلا فرق بين الرأس الذي يمثل العظمة والتميز والمنزلة الرفيعة، وبين الذيل الذي يمثل المؤخرة والمنزلة الدنيا، هكذا كان الأديب وما زال على مر السنين، والناس فيما بينهم تجمعهم صفات مشتركة في كثير من السلوكيات، لكن التميز يكون بجوهره في العقل والأدب، ولعل هذه المكانة العالية التي ينتقصها الكثيرون ليست غريبة أو متنافية لمنطق الأمور؛ فالذهب الخالص يشترك معه الكثير في لونه، ولا يعيبه ذلك، لأنه يظل متميزًا بقيمته وجوهره.

وكذلك الروائح الذكية العطرة التي تفوح من العود، فهذه الروائح التي تبعث في العود قيمته ومقداره بين الناس، ولو لم يتدخلَّ في العود، لما استطاع الناس التمييز بينه وبين الحطب، فالأديب متميز في مجتمعه، وإن كان منهم ويعيش بينهم، كتميز الذهب الذي تجمعه الصفرة مع غيره، وكالعود بين الحطب، ويعلي الإسلام من قيمة الأديب العالم، فقد ورد عنه ﷺ قوله: ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً، فسئلوا فأتوا بغير علم، فضلو وأضلوا))[1]، هكذا إذن كانت رؤية الشافعي للأديب واحترامه له، في حين أن الناس تنظر له نظرة دونية لا احترام لها ولا تقدير.

ويفاخر الشافعي بالعلم والكتابة والأدب، ويرى فيها منزلة رفيعة تفوق الدنيا الزائلة، ويرى كذلك ذاته في تنقيحه للعلوم وسهره من أجل ذلك، إنها لذة تنمُّ عن سعادة روحية معنوية لا يشابهها وصل غانية وطيب عناق، فالنشوة التي تكتسح مشاعره وتحلق به في سماء الفرح والسرور والارتياح، تكون من خلال حل مشكلة عويصة، فتجعله يتمايل طربا، يقول[2]:

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي ★★ من وصل غانية وطيب عناق
وصرير أقلامي على صفحات ★★ أحلى من الروكاء والعشاق

---

١) الحديث رواه مسلم في صحيحه: ١٣- ٢٦٧٣، كتاب رفع العلم وقبه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان.

٢) ديوان الإمام الشافعي: ١٠٤.

وألــذ مــن نقــر الفتــاه لــدفها ★★ نقـري لألقـي الرمـل عـن أوراقـي
وتميــالي طربًــا لحــل عويــصة ★★ في الـدرس أشـهى مـن مدامـة سـاق
وأبيــت ســهران الــدجى وتبيتــه ★★ نومًــا وتبغــى بعــد ذاك لحــاقي

بين الشاعر هدفه في الحياة والغاية التي من أجلها خلق، كما يقدم منهج حياته وعلمه، فهو يسهر الليالي ليس كما يفعل الآخرون الذين يرتعون في اللهو ومتاع الدنيا والاستماع إلى الطرب والغناء ومغازلة النساء وشرب الخمر، لكنه يسهر من أجل الاستمتاع بالعلوم وقراءتها ومراجعتها وتنقيحها وتهذيبها وحل المشكلات العلمية والمسائل الفقهية والأخلاقية، فشتان بين صورة الشافعي العالم الأديب الذي يسهر الليالي ويبذل جهودًا كبيرة من أجل خدمة العلم، والأجيال التي ستدرس هذا العلم وتنتفع به فغايته في الحياة تكريس كل وقته والتفرُّغ للعلم، وبين صورة الناس الذين يسقطون في اللهو والفساد، فالشافعي ذو هدف سامٍ رفيع، وغيره وضع لنفسه هدفًا قاصرًا دنيويًّا.

ولا غرابة في ذلك كله فقد ورد عن ابي هريرة ﷺ عن الرسول ﷺ أنه قال: ((يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها))[1]، ذكره الإمام أحمد قال عقبه: "نظرت في سنة مائة فإذا هو رجل

---

١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم برقم ٣٧٤٠والحاكم في المستدرك، ٥٢٢/٤، والبيهقي في معرفة السُّنن والآثار، ص ٥٢، والخطيب في تاريخ بغداد ٦١١٢ ، وصحَّحه الألباني في سلسلته برقم ٥٩٩، ١٥٠/٢

من آل الرسول ﷺ عمر بن عبدالعزيز، ونظرتُ في رأس المائة الثانية فإذا هو رجل من آل الرسول ﷺ محمد بن إدريس الشافعي"[١].

وإذا كان الشافعي يمثل هذه الرؤية المنطقية والواقعية، ويجسد العالم والأديب فإنه من الطبيعي ألا يشغل نفسه بالمظهر والشكل، ويستعرض الإمام الشافعي صورتين متنافرتين لنفسه، وهما صورة المظهر والخارج وصورة الجوهر والداخل، يقول مصورًا الحالتين[٢]:

علي ثياب لو ثباع جميعها ★★ بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس ببعضها ★★ نفوسُ الورى كانت أجلَّ وأكبرا
وما ضر نصل السيف إخْلاقُ غِمْدِهِ ★★ إذا كان عضبًا حيْثُ وجَّهْتَه فَرَى

إن مظهر الشافعي الخارجي بما يرتدي من ثياب لا يسر أو يغبطه عليه أحد أو يحسده، فلو بيعت تلك الثياب لما ساوت فلسًا واحدًا، بل إن الفلس الذي يعد أصغر وحدة نقدية متداولة يفوق قيمة ذلك اللباس، لكن هذا المتاع الخارجي ليس هو الأساس، فجوهر الأمور لا يقاس بالمظهر والشكل، وإنما يخفي وراء ذلك الظاهر، فالشكل يحوي درَّة لا تقدر بثمن هي النفس العظيمة التي لا تقف عند حدود، إنها الهمَّة العالية والطموح والإرادة والعزيمة التي لم تستطع النفوس في سالف الأزمان أن تجاريها أو تحاكيها، ولعل هذا يذكرنا بقول المتنبي:

---

١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ، ٩٨/٩.

٢) ديوان الإمام الشافعي: ٧٦.

وإذا كانـــت النفـــوس كبـــارًا ★★ تعبـــت في مرادهـــا الأجـــسام

وقال ﷺ: ((إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[١].

وإذا كانت الأهمية للنفس وللجوهر وللباطن فإن الشكل لا يتعدَّى كونه الحامل لذلك الجوهر، ويدلل الشافعي على صحة ذلك بتجسيد هذه الرؤية بصورة مقابلة لعنصري المظهر والجوهر من خلال بيان عنصرين مقابلين هما نصل السيف (الجوهر) وغمده (الظاهر والخارج)، فإذا كانت الأهمية للنفس دون المظهر، كذلك الحال بالنسبة لنصل السيف؛ إن كان ماضيًا لن يضره الغمد الخَلِق الرَّث، فحينما يستل السيف من غمده يتركه ويظل في ساحة الوغى يصول ويجول معتمدًا على مضائه وقوته تاركًا وراءه ذلك المظهر الخارجي، ويسوق الشافعي دليلاً منطقيًا على أهمية الجوهر من خلال صورة الدهر، فيقول[٢]:

الـدهر يومان: ذا أمـن، وذا خطـر ★★ والعيش عيشان: ذا صفو، وذا كدر
أمـا تـرى البحـر فوقـه جيـف ★★ وتـستقر بأقـصى قاعـه الـدرر
وفي الـسماء نجـوم لا عـداد لهـا ★★ ولـيس يكـسف إلا الـشمس والقمـر

يصف الشاعر الدهر بالتقلب من خلال تلونه، فيحوي المتناقضات فمرة يسعد المرء بجانبه فيحيا بأمن وطمأنينة ويبتسم له الدهر ويعتقد أن الخطر في أيِّ منأى عنه، ولكن سرعان ما يتحول الفرح ترحًا والأمن خطرًا، وفيه

---

١) صحيح مسلم: البر والصلة والآداب، ٢٥٦٤.
٢) ديوان الإمام الشافعي: ٧٢.

الصفو وكدر الحياة، وليس بغريب، فالصورة هذه تتكرر في مظاهر الكون الطبيعية، فالبحر يحوي التناقضات فعلى الرغم من ظهور الجيف على سطحه وتعلوه مع الموج، فإن هذه الصورة مضللة، لأن البحر له جانب مشرق آخر، ففي قاعه تستقر الدرر والجواهر والأحجار الكريمة، وكذلك حال السماء؛ ففيها النجوم التي لا تحصى، ولكن الأهمية للشمس والقمر، وهكذا كان الشافعي بجوهره لا بشكله ومظهره.

ونختم هذا المحور بأبيات الشافعي التي يحث فيها الناس على التعلم، وإحراز شرف العلم، فيقول:

العلم مغرس كل فخر، فافتخر ★★ واحذر يفوتك فخرُ ذاك المغرسِ
واعلم بأن العلم ليس يَنالُه ★★ مَن همَّه في مطعمٍ أو ملبسِ
إلا أخو العلم الذي يعنى به ★★ في حالتيه: عاريا أو مكتسي
فاجعل لنفسِك منه حظًّا وافرًا ★★ واهجر له طيب الرقاد وعبسِ
فلعل يومًا إن حضرتَ بمجلس ★★ كنتَ الرئيسَ وفخرَ ذاكَ المجلسِ

((المحور الثالث))

الناس السفهاء والشافعي الحليم الحكيم

ويقدم الشافعي صورتين متغايرتين إحداهما للسفهاء من الناس والأخرى للحلم الذي يمثله، يقول(١):

يخاطبني السفيه بكل قبح ★★ فأكره أن أكون له مجيبًا

يزيد سفاهة فأزيد حلمًا ★★ كعود زاده الإحراق طيبًا

يرسم الشافعي صورة الإنسان السوي خلقًا وأدبًا من حيث الصمت والسكوت على عبث الإنسان السفيه، والترفع عن المعاملة بالمثل، واتباع سلوك الحلم والتسامح، لأن صورة التسامح والحلم جميلة، بينما كانت صورة السفية قبيحة وغير متزنة، فإذا خوطب الشافعي الحليم والمتسامح من جانب السفيه بكلام قبيح ومرذول وساقط فإن جوابه يكون الصمتَ، لأنه يعلم أن الرد عليه يزيده بذاءة وقبحًا، وكلما ازداد الآخر قبحًا وبذاءةً ازداد الشافعي حِلمًا، ومن هنا لا يحلم إلا الواثق من قدرته والمطمئن إلى نفاذ حجته.

وتشبه صورة ازدياد الحلم صورة العود الذي تزداد رائحة عطره كلما ازدادت إحراقه، ومن هنا فإن الحلم يتضاعف مع ازدياد سفاهة السفيه، كتضاعُف العطر حينما تزداد عملية الاشتعال فيه، إنها صورة جميلة

١) ديوان الإمام الشافعي: ٢٠.

للحليم الذي يعفو عمن يسيء إليه، وتتمثل جماليات هذه الصورة بالرائحة الزكية للعود الذي تفوح منه رائحة العطر.

وتتضاعف أهمية الصورة الجميلة هذه من خلال إضفاء المحسنات البديعية عليها، مثل الطباق بين السفيه والحليم، والقبيح والطيب، ومخاطبة السفيه والكره في الإجابة.

وهذا الحلم نفسه يعكس الشخصية الحكيمة للإمام الشافعي في مواجهة الأمور الحياتية، ولم يقتصر على الانتفاع بالحكمة وحده، بل راح يضمن شعره كله حِكَمًا متناثرةً ترشد الجاهلين وتنبه الغافلين الذين كثيرا ما يقعون في الأخطاء.

فهذا هو الشافعي يحذر الجاهلين والغافلين مثلاً من مغبة التخاذل في وجه العدو؛ فهذا مما يدفع ذلك العدو إلى الشماتة، فيقول[1]:

ولا تُـــرِ للأعْـــدَاءِ قـــطَّ ذُلاً ★★ فـــإنَّ شَـــماتة الأعـــدَا بـــلاءُ

هذه حكمة تستوجب النظر حقًّا، لما تعكسه من مضمون جدير بالأخذ به؛ فالعدو حينما يرى خصمه ذليلاً مستكينًا فإنه سيظهر الغلبة عليه، وسيَشْمَتُ به.

ومع هذا فإن الشافعي لم يعرف الاستسلام واليأس على ما يبدو من شعره، وذلك في مواجهة محن الحياة وصعابها ونوائبها، فلكل مشكلة في

١) المصدر السابق: ١٠.

رأي الشافعي حلٌّ، ومهما اشتدت الأزمات فلا بد في النهاية من الفرج، يقول الشافعي[١]:

ولـرب نازلـة يـضيق بهـا الفـتى ★★ ذرعـا، وعنـد الله منـها المخـرج
ضـاقت فلمـا اسـتحكمت حلقاتهـا ★★ فرجـت، وكنـت أظنـها لا تفـرج

إن الشافعي هنا يستسلم فقط لإرادة الله ﷻ، ويتوكل عليه توكلاً عظيمًا، فمهما صعبت الحياة وتعاظمت المحن فإنه يثق بربه الكريم بأنه سيمنحه لحظة الفرج، وذروة المحن عند الشافعي دلالة على قرب انفراجها، وهذا حديث للجهلاء من الناس وذوي النفوس الضعيفة أو النفَس القصير الذين يحيط بهم الخوف والقلق من كل جانب حينما تواجههم أي مشكلة أو نائبة من نوائب الدهر في حياتهم.

١) المصدر السابق: ٤٠.

الخاتمة

مما سبق يتبين لنا أربعة نتائج مهمة:

النتيجة الأولى: شعر الشافعي يعبر تعبيرًا صادقًا عن حزنه العميق حين رأى الناس في عصره يتكالبون على نعيم الدنيا الزائل، وقد استطاع أن يعبر عن هذا الواقع من جميع جوانبه: الدينية، والثقافية، والعلمية، والاجتماعية، وذلك عن طريق أدوات فنية خاصة، منها التضاد والمقابلة بين حالةٍ وحالةٍ أخرى، تمثلت الحالتان في نفسه مع الآخر، مما أظهر كثيرًا من صور هذا الواقع المؤلم والحافل بأنواع كثيرة من المفاجآت والتقلبات بجميع أشكالها.

النتيجة الثانية: حينما يحاول الشافعي أن يرغِّب في الكرم فإنه يستخدم وسائل متعددة، كان منها وسائل الحجاج والإقناع؛ فقد حث الرسول ﷺ على هذا الخلق النبيل، ومنها ارتباط البخل بالدنيا وفتنتها وارتباط الكريم بالزهد فيها، حتى إنه رغِبَ أن يكون عنده المال لينفقه على المحتاجين، ومنها أن هذا الكرم سلوك القانعين الراضين بالقضاء والقدر، حتى إنه عدَّ ذلك رأس الغنى، وكذلك فإن هذا الكرم هو سلوك أصحاب الهمَم العالية وليس الكسالى والضعفاء.

النتيجة الثالثة: حاول الشافعي أن يثبت أن التميز يكون بجوهره في العلم والأدب، وذلك عن طريق الحجاج العقلي والمنطقي حينًا، وبالتعبير والتصوير حينا آخر، وما يميز الشافعي نفسه هنا هو أنه ذكر الخبرة

الشخصية في تحصيل العلم واللذة التي يحصلها حينما يرى غيره لاهيًا وهو منكبٌّ على كتاب يدرسه، كما أنه لم ينس أن يمدح نفسه الخفية الغنية الباقية تحت الثياب الظاهرة الفقيرة الفانية.

النتيجة الرابعة: لما كان ديوان الشافعي مثالاً طيبًا لشعر الحكمة والزهد فإنه قد قارن بين صورتين عظيمتين: صورة السفيه الذي يجهل عليه، وصورته حينما يزداد حلما مع جهل ذلك الجاهل، وكيف أن ذلك مدعاة لكل خير وفضل، وكيف كان ذلك الحلم أحد مظاهر الحكمة التي يفيض بها ديوان الشافعي نفعًا للناس.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- آداب الشافعي ومناقبه: عبد الرحمن الرازي، قدم له وحقق أصله الشيخ عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، لا ط، لات.
- أدب الفقهاء: عبد الله كنون، دار الكتاب اللبناني، لا ط، لات.
- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم وذكر عيون أخبارهم وأخبار أصحابهم للتعريف بجلالة قدرهم، يوسف بن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت، لا ط، لات.
- التطور في الفنون: توماس موترو، ترجمة محمد أبو درة، القاهرة، ١٩٧٢م.
- جمع الجواهر في الملح والنوادر: الحصري القيرواني، تحقيق على محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط١، ١٩٧٣م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ.
- دراسة فنية في شعر الشافعي: حكمت صالح، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

- ديوان الإمام الشافعي (الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس)، تعليق وتقديم: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ١٩٨٨م.
- رياض الصالحين: ابن شرف النووي ، مؤسسة الرسالة، ط٧ ، ١٩٨٤.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل، دار الحديث، القاهرة، د.ط.
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، منشورات محمد علي بيضون، لبنان، ط٢، سنة ٢٠٠٣م.
- طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين السبكي، القاهرة، ط١، ١٣١هـ.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
- الكشكول: بهاء الدين العاملي، طبعة مصر، ١٢٨٨هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، ومحمد الشاذلي، دار المعارف، ط٣،سنة ١٩٨١م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٤م.

- المقتطف من عيون التفاسير، مصطفي المنصوري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٠م
- مناقب الشافعي: أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق أحمد صقر، مكتبة دار التراث، ط١، ١٩٧١م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان.